8
درء عار العجز

النزعة إلى تحميل مجموعة صغيرة ومحددة ضمنا من الأشرار مسؤولية الأعمال السيئة والمؤذية لم تلق الدعم والتشجيع من الرغبة في الأمان واليقين فقط، بل من الرغبة في درء مشاعر الخزي والعار أيضا. ويبدو أن تمني تقليص حدة تهديد العار قد ساعد على تشكل الإرهاب إضافة إلى مكافحته (مثلما اعتبرت المقاومة العراقية أنها تغسل عار ما حصل في الفلوجة، أو حين صور ابن لادن العنف الإرهابي بأنه يغسل عار الهيمنة الغربية).

أشار الطبيب النفساني جيمس غيليغان إلى أن الناس سيلجؤون إلى أقصى مدى من العنف لدرء مشاعر العار والمهانة[1]. وأقنعه العمل مع / والإصغاء إلى بعض من أخطر وأعنف المجرمين في أمريكا بأن التجارب الماضية لهؤلاء الأفراد قد أصابتهم بحساسية مفرطة تجاه مشاعر العار والمهانة والمذلة، وحين يدفع الحظ العاثر شخصا لإثارة أو إيقاظ هذه المشاعر فإنه يخاطر بحياته. ومن خلال القتل (بما في ذلك الهجوم على العيون التي ترى والألسن التي تتكلم)، يمكن للمجرم القضاء مؤقتا على تهديد الشعور بالعار. ومن المهم في دلالته أن العنف لم يستهدف في العادة مصدر الإذلال الأصلي. الأمر الذي يشير إلى انقطاع جذري في الصلة بين «الحل» و«المشكلة» ـ وهذا عامل مفتاحي في التفكير السحري عموما. وقدم غيليغان الحجة على أن الرغبة في القضاء على مصدر الشعور بالعار وبالتالي الاحتفاظ بإحساس من القيمة الشخصية، شكلت على الدوام باعثا أقوى حتى من غريزة البقاء، مما يدفع المجرمين العنيفين إلى السلوك المدمر للذات وإساءة معاملة الآخرين.

يبدو أن فظائع الحادي عشر من سبتمبر وعواقبها قد استحضرت ثلاثة تهديدات مهمة بالعار للولايات المتحدة، دفعت المسؤولين المعنيين إلى الذهاب إلى أبعد مدى ـ واستخدام حتى العنف ـ لدرء هذه التهديدات. التهديد الأول (سنناقشه في هذا الفصل) نجم عن العجز المطلق تجاه مأساة الحادي عشر من سبتمبر (ثم بالتوسع، نشر القوات الأمريكية ردا على ذلك).

يمكن اعتبار هجمات الحادي عشر من سبتمبر ردا على الإذلال، استجابة مذلة في حد ذاتها. أما الرد الذي قادته الولايات المتحدة فشمل نقل مشاعر العجز والعار إلى الآخرين من خلال توكيد مشهود على القوة العسكرية الأمريكية. ومثلما هي الحال مع المجرمين الذين تحدث عنهم غيليغان، كان مصدر الإذلال الأصلي غير متاح ويصعب الوصول إليه (على الأقل بسبب انتحار الإرهابيين الذين نفذوا الهجمات)، الأمر الذي أعدّ المشهد لانقطاع الصلة بين «الحل» و«المشكلة»، تماما مثل عملية إزاحة العنف التي بينها غيليغان. الحلقة مفرغة، كما لاحظنا، ولا نهاية لها، نظرا لأن أولئك الذين نقلت إليهم «حمولة» العجز والعار سوف يتعرضون (وهم معرضون) لإغراء معالجة ضعفهم ومداراة عارهم من خلال شعورهم بالقوة عبر استخدام العنف، وذلك حين يلجؤون إلى شن الهجمات الإرهابية ومقاومة الاحتلال. وكما كتب إيريك هوبزبوم في دراسته حول قطاع الطرق والمتمردين: القتل والتعذيب هما أشد التوكيدات بدائية وشخصية على القوة المطلقة، وكلما زاد شعور المتمرد بضعفه في قرارة نفسه، تعاظم ـ كما نفترض ـ إغراء توكيده على القوة(2).

استحضرت الهجمات تهديدا ثانيا بالعار أشد إيذاء وأفدح ضررا: التهديد الناجم عن الاشتباه (مهما كان مبهما وتردد الناس في استشعاره) بأن أولئك المستهدفين (أي الأمريكيين) قد فعلوا شيئا أو امتنعوا عن فعله. ويبدو أن تحديد مصدر العنف باعتباره «شراً» خارجيا معينا، قد قدم بديلا أكثر معقولية وقبولا (سنناقش هذه العملية في الفصل التاسع).

التهديد الثالث بالعار (سنتطرق إليه أيضا في الفصل التاسع) انبثق من ردة الفعل العنيفة على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وهي ردة فعل استحثت إدانة واسعة النطاق للولايات المتحدة (وبريطانيا إلى حد كبير) من مختلف بلدان العالم، إضافة إلى عداء شديد للجنود المنتشرين على الأرض في أفغانستان والعراق. ورد المسؤولون المعنيون بعمليات مكافحة الإرهاب على هذا التهديد الإضافي بالعار عبر توسيع دائرة أعدائهم بالتزامن مع تضييق دائرة حلفائهم الموثوقين. أما الانتقاد المسيء لـ«الأصدقاء» فيمكن تجنبه بطريقة لبقة ـ لكن خطرة ـ عبر استبعادهم، أو في الحد المتطرف، إعادة تعريفهم بوصفهم «أعداء». تساعد هذه العملية في تفسير حماسة الهجوم العدائي على المنتقدين المحليين والأجانب لـ«الحرب على الإرهاب»، وضد المدنيين في البلدان التي تعرضت للهجوم العسكري.

العنف باعتباره قوة

حين تسربت أنباء الانتهاكات في «أبو غريب»، استنكر المسؤولون الأمريكيون عمليات الإذلال المفتضحة باعتبارها استثنائية ولا تمثل الولايات المتحدة. واحتدم أيضا جدل عام حول التعذيب، حيث قدم بعضهم الحجة على إمكانية تبرير درجة معينة من التعذيب إذا استهدف الحصول على معلومات يمكن أن تمنع هجوما إرهابيا وشيكا أو تساعد في «الحرب على الإرهاب». لكن ماذا لو لم تكن الانتهاكات مجرد انحراف أو محاولة وحشية لـ«الفوز»، بل هي هدف مركزي؟ ماذا لو لم يكن الإذلال استثناء ولا حتى وسيلة، بل القاعدة والغاية؟

في حين يقدم العنف عادة كوسيلة تخدم غاية تتجاوزه (مثلا: جعل العالم أكثر أمنا أو عدلا)، فإننا نعرف من العديد من الدراسات والأبحاث عن الحرب في شتى أرجاء العالم أن العنف يغل ثماره في كثير من الأحيان: خصوصا الشعور الفوري بالرضى نتيجة فرض الإرادة وعكس الشعور السابق بالعجز والمهانة. وبهذا المعنى

يصبح العنف بحد ذاته الهدف من العنف. وبينما يميل الخطاب البلاغي للعنف الجماعي إلى التمحور حول «العدالة»، و«الوقاية»، وهزيمة العدو، فإن الغرض منه ربما يكون مباشرا وفوريا بدرجة أكبر. الأمر الذي يعني في دلالته أن من غير المهم اختيار الهدف الصحيح أو هزيمة العدو المعلن.

أظهرت الحروب المعاصرة في غرب إفريقيا الوظائف الفورية والمباشرة للعنف. على سبيل المثال، أكد المحللون الذين درسوا الحرب الأهلية في ليبيريا على أهمية الإثارة المصاحبة لممارسة القوة من خلال فوهة البندقية[3] في سيراليون المجاورة، كل من يفسر العنف كوسيلة لغاية بعيدة المدى يناقض المفارقة المتمثلة في استعداء المتمردين والجنود على حد سواء للمدنيين من خلال الهجمات ضدهم (انظر الفصل الثالث). لكن إذا اعتبرنا العنف توكيدا مباشرا للقوة وردا فوريا على العجز، تأخذ غالبية الممارسات العنيفة هذه معنى دلاليا أكثر عمقا. وبالتوافق مع رؤى هوبزبوم حول وظائف «اللصوصية الاجتماعية» المتمثلة في «المساواة بين الناس» عموما[4]، يشكل العنف في سيراليون غالبا طريقة لتحقيق المساواة الفجة والفورية في المجتمع عبر تدميره وتسويته بالأرض. وبمعنى من المعاني، يقلب العنف المكانة والرؤية رأسا على عقب: يمكن أن يتحول الفقراء والحقراء إلى أغنياء وأجلاء؛ والمهمشون والمهملون إلى نجوم لامعة تحتل أخبارهم الصفحات الأولى. ومن العوامل الأساسية المهمة أن العديد من الشباب يعيشون قبل اندلاع الحرب الأهلية السافرة في حالة فظيعة من الحرمان (من المكانة، والعمل، والكلام، وحتى الزواج)[5]. وفي الوقت ذاته، يميل جنود الحكومة ـ المعرضون لخطر جماعات المتمردين المتمتعين بالذكاء والدهاء والقدرة على المراوغة، بالتزامن مع إهمال وتجاهل رؤسائهم ـ إلى التنفيس عن غضبهم وإحباطهم باضطهاد أولئك الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم: المدنيين[6] وبالرغم من أن الزعماء الذين لا يتمتعون بالشعبية يتعرضون أحيانا للهجوم من قبل المتمردين، إلا أن هناك استعدادا ملحوظا لدى الجنود والمتمردين

على حد سواء ـ مثلهم مثل المجرمين الذين أشار إليهم غيليغان ـ لممارسة العنف وإلحاق العار بأولئك الذين لا يعتبرون مصدرا أساسيا لمظالمهم وشكاواهم وإذلالهم.

في تحليلها للحروب التي عصفت بالصين في بدايات القرن العشرين، اكتشفت المؤرخة ديانا لاري ديناميات مشابهة إلى حد غريب. وقدمت الحجة على أن الأعمال الوحشية التي انتشرت على نطاق واسع واستهدفت المدنيين لم تنجم عن «شر» فطري متأصل في الجنود، بل عن إحساسهم بالعجز: الضرب الذي تعرضوا له، الإهمال الذي عانوا منه، الأمراض التي أصابتهم في ظروف مرعبة، العجز الذي شعروا به في الحياة المدنية(7). ويبدو أن الانتقام من أولئك الأقل قوة كان بمثابة رد على هذا الإحساس المتراكم بالعجز(8).

حين يتعلق الأمر بأمريكا والجنود الأمريكيين في السنوات الأخيرة، يتبدى إحساس بالعجز على المستويين الكلي والجزئي كليهما. فعندما فوجئت في الحادي عشر من سبتمبر 2001، بدا بكل وضوح أن أغنى حكومات الأرض وأكثرها تسلحا عاجزة تماما عن حماية آلاف من مواطنيها؛ ودمرت الطائرات المخطوفة الرمز الشاهق للثروة الأمريكية قبل أن تحدث فجوة هائلة في المؤسسة المسؤولة عن الدفاع عن الوطن (البنتاغون)(9). تباهى أسامة ابن لادن في شريط فيديو بثته قناة الجزيرة، قائلا: «.. فها هي أمريكا قد أصابها الله في مقتل من مقاتلها فدمر أعظم مبانيها فلله الحمد والمنة»(10).

يمكن معاناة العجز على عدة مستويات مختلفة، وقد يغذي العنف حتى على المستوى المحلي. مرة أخرى نقول إن مراوغة عدو مستعد لتنفيذ هجمات إرهابية تعد عاملا مهما. كما أن نقص الموارد أمر مهم أيضا. على سبيل المثال، نعلم أنه في «أبو غريب»، أسهمت رغبة إدارة بوش في تحديد التزامات الجنود في الافتقار الحاد إلى الموارد، مع نقص في عدد المترجمين والمحققين وحراس المساجين (بلغت النسبة 75 إلى واحد). وتعرض السجن إلى هجمات يومية بقذائف الهاون. ويبدو أن الشعور

obeikandi.com

بالحصار الناجم عن ذلك كله قد شجع الانتهاكات التي ارتكبت هناك، بما فيها التعذيب السافر[11].

مثلما هي الحال مع العنف في زمن الحرب عموما، لا يمكن تفسير التعذيب فقط كوسيلة لغاية بعيدة المدى، ومن المؤكد أن جزءا من الغرض المعلن للتعذيب هو الحصول على المعلومات. لكن رأينا كم عدد السجناء الذين عذبوا على أيدي الجنود الأمريكيين ولم تكن لهم أي صلة بالمقاومة العراقية. وعلى أية حال، يحرض التعذيب بشكل طبيعي على العداء والعنف. يلاحظ فواز جرجس من مقابلاته المطولة والشاملة مع الجهاديين في الشرق الأوسط أن «السجون في البلدان العربية / الإسلامية، خصوصا غرف التعذيب فيها، شكلت حاضنات لتفريخ أجيال من الجهاديين»[12]وأي «ميزة» فيما يتعلق بجمع المعلومات تتضاءل أهميتها نتيجة عاملين اثنين: أولا، مضاعفة عدد الأعداء؛ ثانيا، نقص متوقع في الحصول على المعلومات من المواطنين العراقيين العاديين وغيرهم في العالمين العربي والإسلامي[13]. ولا ريب في أن المعلومات المستخلصة تحت التعذيب لن تكون موثوقة على أية حال. ولاحظ أستاذ علم النفس روبرت ليفتون، الذي درس حالات ضحايا التعذيب الذين خرجوا من الصين الشيوعية في الخمسينيات، أن التعذيب يدفع الضحايا لقول ما يريد المحققون سماعه: لسوف يعترف الضحايا بأي شيء يخطر على البال[14]. يبقى هذا الرأي صحيحا حتى اليوم. ومثلما أكدت منظمة حقوق الإنسان: «كتيب التحقيق الذي أصدره الجيش الأمريكي يوضح أن سوء المعاملة يضعف المسعى للحصول على معلومات موثوقة. وتقول القيادة العسكرية الأمريكية في العراق إن المعتقلين العراقيين يقدمون معلومات استخبارية أكثر فائدة حين لا يخضعون للإكراه والإجبار»[15]. وأبلغ أحد كبار القادة الأمريكيين صحيفة «نيويورك تايمز» في السابع والعشرين من أيار/ مايو 2004، بأنهم لم يعرفوا «سوى القليل عن التمرد» من التحقيقات التي جرت في «أبو غريب»[16].

obeikandi.com

نعود مرة أخرى إلى حملات مطاردة الساحرات. تقول آن بارستو، في معرض تعليقها على هذه الحملات في أوروبا القرن السادس عشر: «يبدو أن السجانين، وصائدي الساحرات، والجلادين، والقضاة، كانوا يحصلون على متعهم السادية من السجينات [المتهمات بممارسة السحر]. وأراد الرجال المعنيون من مطاردة الساحرات أكثر من مجرد إدانتهن: أي، سلطة جنسية لا يمكن تحديها على النساء»(17). وتضيف بارستو: «الحقيقة الأساسية للسلطة القضائية المطلقة على النساء ربما أججت النزعة إلى العنف». اليوم، تبدو إغراءات ممارسة القوة المتطرفة على شكل تعذيب عظيمة جدا في سياق: أولا، العجز المطلق أمام هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ ثانيا، الخوف والإحساس بالعجز لدى جنود الاحتلال الذين يعيشون بين سكان يتنامى عداؤهم باطراد (خصوصا في العراق)؛ ثالثا، فرص السيطرة والتحكم والمناعة التي يتيحها تطبيق «الحرب على الإرهاب». التجربة المستخلصة من عدد لا يحصى من الحروب إضافة إلى ميدان العنف الإجرامي تخبرنا بعدم وجود ما هو أخطر من هيمنة شعور على فرد (أو جماعة) بأنه ضحية بالتزامن مع إحساس بالحصانة (والقدرة على الإفلات من العقاب)(18). الأمر الذي لا يفسر موقف العديد من الأفراد العسكريين على الأرض فقط، بل الولايات المتحدة ككل (حصانتها مستمدة إلى درجة كبيرة من غياب قوة عظمى أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي).

الانتهاكات التي ارتكبت في «أبو غريب» وغيره من المعتقلات الأمريكية، بما فيها تلك الموجودة في أفغانستان، قصد منها على ما يبدو إلحاق أكبر قدر من العجز والعار بالضحايا، بينما خدمت الصور هدف إلحاق نوع من «العار المضاعف»، حسب تعبير مارك دانر(19). يبدو أن الانتهاكات في هذه السجون قد أخذت بعين الاعتبار المشاعر والحساسيات المحلية بشكل متعمد، واستخدمتها ضد الضحايا. الكتيب الإرشادي / التدريبي لمشاة البحرية يشمل النصح بأخذ الثقافة العراقية بعين الاعتبار:

لا تلحق العار برجل أو تهينه علنا. فهذا يجعله هو وأسرته معادين للتحالف.. قد يتمثل العار في وضع قلنسوة فوق رأس المعتقل. تجنب هذه الممارسة. أما تمديد المعتقل على الأرض أو وضع القدم فوقه فيعني أنك ربّه ـ هذا من أسوأ الأشياء التي يمكن أن نفعلها[20].

لكن إغراء «إلحاق العار» بالآخرين كان لا يقاوم. ويبدو أن الإحساس الفوري بالعجز نتيجة أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان أشد تأثيرا نظرا لحقيقة اعتياد أمريكا ممارسة قوتها العظيمة ونفوذها الواسع وسلطتها المهيمنة: ومثل صبي اعتاد منذ نشأته الحصول على كل ما يريد بطريقته الخاصة، اعتادت أمريكا فرض إرادتها على الآخرين، لا الخضوع لإرادتهم. علاوة على أن صدمة الحادي عشر من سبتمبر فاقمت على ما يبدو شعورا أوسع بالقلق: قلق جماعي من فقدان أمريكا لتفوقها الاقتصادي. وفي هذا السياق المزدوج، بدت أوهام تجديد القدرة الكلية شديدة الإغراء: وساعدت في إعادة التوكيد على بعض الشعور بالسيطرة والتحكم. واتضحت هذه الرغبة في التوكيد على التحكم والسيطرة حتى في التفاصيل الصغيرة، كما حدث حين أصر بوش على أن الولايات المتحدة سوف ترد على الحادي عشر من سبتمبر «في الوقت الذي تختاره».

الرغبة في الانتقام ترتبط ارتباطا وثيقا أيضا بإبطال الشعور بعار العجز، وضحايا هذا الانتقام تحددوا بواسطة التعريفات على أعلى مستوى للعدو. مرة أخرى نؤكد أن ذلك كله ليست له سوى صلة واهية بكسب «الحرب على الإرهاب»، بل هو يعرقل الانتصار فيها. في الرابع من شباط / فبراير 2002، تجمع حوالي خمسة وعشرين رجلا من القوات الأمريكية الخاصة وثلاث جماعات شبه عسكرية من وكالة المخابرات المركزية قرب الحدود الباكستانية مع أفغانستان. ووضعت كومة من الصخور على شكل شاهدة قبر فوق صورة مدفونة لمركز التجارة العالمية المدمر.

تلا أحد الرجال الصلاة وأعلن: «نحن نقدس هذه البقعة كنصب تذكاري أبدي للأمريكان البواسل الذين قضوا في الحادي عشر من سبتمبر، وسيعلم كل من تسول له نفسه إلحاق الأذى بأمريكا أنها لن تقف مكتوفة الأيدي لتشاهد انتصار الإرهاب»[21]. ذلك هو أسلوب بوش دون ريب لكن قد يتجاوز الجنود حتى الرئيس في الإعراب عن الرغبة في العنف. تابع الجندي صلاته ليقول: «لسوف نحمل الموت والعنف إلى أركان الأرض الأربعة دفاعا عن أمتنا العظيمة». يمكن العثور على مشاعر مشابهة لدى بعض الجنود الأمريكيين الذين يخدمون في العراق. العريف مايكل ريتشاردسون (22سنة) علق قائلا:

> هنالك صورة لمركز التجارة العالمية معلقة قرب سريري وأحتفظ بأخرى في جيب سترتي (المضادة للرصاص). في كل مرة أنظر إليها، أشعر بالأسف لهؤلاء الناس. أفكر: «وجهوا لنا ضربة داخل الوطن، والآن حان دورنا». لا أريد القول أننا ننتقم، لكنه انتقام بالفعل[22].

أحد الضباط البريطانيين السابقين ممن كانت لهم علاقة مع الجنود الأمريكيين في العراق، قال إن الشعور السائد هو «يجب الانتقام بدون تردد» وأضاف: «العديد منهم ما زالوا يعتقدون بأنهم يتعاملون مع المسؤولين عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر»[23].

الاتكالية والقدرة الكلية

لا يوجد من هو أضعف من الطفل الرضيع، لكن المغني ومؤلف الأغنيات الكندي نيل يونغ قال (في أيار/ مايو 2003) إن «الولايات المتحدة تشبه وليدا يحمل قنبلة!»[24]. لا ريب في أن المقارنة سوف تسبب القلق للعديد من الناس: تماما مثل محاولات المسؤولين والمراقبين الأمريكيين اتهام فرنسا بالطفولية بسبب عدم عدوانيتها تجاه العراق (الفصل التاسع)، أو زعيم كوريا الشمالية كيم جونغ ايل

(الفصل الثاني). لكن قد تكون كلمات الموسيقي أكثر من مجرد عبارة استفزازية. تلاحظ المحللة النفسية البريطانية جوان ريفيير، في كتاب ألفته مع ميلاني كلاين المتخصصة في التحليل النفسي للأطفال، أن «الوليد لا يميز وجود أحد سوى نفسه.. ويتوقع تلبية كل ما يريد»[25]. وحين يدرك أنه معتمد على الآخرين، يرجح أن يصبح عدوانيا جداً. تتابع ريفيير: «لا يستطيع الوليد أن يميز بين ـ أنا ـ و ما ـ ليس أنا ـ؛ فاحساساته هي عالمه؛ العالم بالنسبة له؛ لذلك حين يشعر بالجوع أو البرد أو الوحدة يفقد العالم الحليب أو الرعاية أو المتعة[26]قد يشكل هذا الإدراك بالعجز في حد ذاته مصدرا أوليا للعار[27]. وكانت باربرا أهرنرايك قد كتبت تقول: «نحن الأمريكيون كنا [قبل الحادي عشر من سبتمبر] كسالى، ومتشبثين بجهلنا بكل عناد، ومنشغلين بالذات إلى درجة الاعتقاد بأنها الموجود الوحيد. فإذا ما كان هناك عالم خارجي، لم نكن نريد أن نعرف شيئا عنه، إلا إذا ماتت فيه أميرة جميلة»[28]. كم مرة قيل للعالم إن الحادي عشر من سبتمبر هو «اليوم الذي غيَّر العالم»، وإن «إحساسنا بالأمن تلاشى في ذلك اليوم»، و«لا شيء سيبقى على حاله أبداً»؟ هنالك شيء من الصحة والحقيقة في هذه العبارات، ومن خلال طبيعتها التحفيزية، ساعدت على تغذية ردة فعل (ومبدأ الفعل الاستباقي) غيرت في حد ذاتها العالم تغييرا جذريا. لكن هناك استغراقا في شؤون الذات وعمى في البصيرة أيضا. فإذا حاولت تقديم الحجة على أن السادس من نيسان/ أبريل 1994 هو «اليوم الذي غير العالم»، فسوف تقابلك نظرات خالية من المعنى في شوارع نيويورك (أو لندن). وتكون محظوظا في الواقع إذا صادفت شخصا مثقفا ومدركا بما يكفي لكي يتذكر بالكاد ويقول: «أجل، ألم تبدأ في ذلك اليوم عمليات الإبادة الجماعية التي راح ضحيتها 800ألف شخص في رواندا؟».

الولايات المتحدة ليست في مرحلة الطفولة بل أمة مبدعة ومتقدمة تقانيا تتمتع بثقافة غنية ومتنوعة؛ لكن في بلد يعاني من عجز غير مسبوق في الميزان التجاري

بينما يشن حروبا باهظة التكاليف ويطبق تخفيضات ضريبية مقدارها 350 مليار دولار، ألا يوجد شيء من سمات هذا الوليد الذي يتوقع «تلبية كل ما يريد». ألا يوجد شيء طفولي أو شيء من التهور على الأقل في التفكير السحري الذي يعتبر الحروب التكنولوجية المتقدمة بدون تكلفة بالنسبة للضحايا والمعتدين، وفي الاعتقاد بأن من المفيد الرد على الإرهاب بزيادة الإنفاق، وفي الرأي القائل إن من الممكن بطريقة ما فصل الأشرار عن بقية الناس، وفي الإيمان بأنك إذا أغمضت عينيك وتمنيت شيئا صعب التحقق (تدمير بعض أسلحة الدمار الشامل في عيد الميلاد أو عيد الفصح!) سوف تتحقق أمنيتك بشكل سحري؟[29].

تبدو السياسة الأمريكية من جوانب عديدة قائمة على أساس الحفاظ على «جنة الحمقى والبله» في التو واللحظة، بينما تصدر المشكلات إما إلى مناطق جغرافية أخرى (تصدير العنف، امتصاص رأس المال لتمويل العجز في الميزانية) أو إلى مراحل زمنية أخرى (مستقبل ينوء بمشكلات التغيرات المناخية والتلوث، مستقبل سيشهد تعويض العجز الحالي في الميزانية وتكاليف حرب العراق من خلال تخفيض نفقات الرعاية الصحية، والحصول على الأدوية، والضمان الاجتماعي.. الخ)[30]. الخبير الاقتصادي ديفيد غولد لاحظ في عام 2004 أن «برنامج بوش الدفاعي إجمالا سوف يتطلب زيادات إضافية هائلة في الإنفاق الاتحادي، إذا نفذت الخطط الراهنة. ومع التخفيضات الضريبية ونمو الإنفاق في المجالات الأخرى، فإن هذه وصفة تقليدية لتحطم قطار الميزانية»[31]. فإن تبدى هنا تفكير يتعلل بالأماني، فلا يمكن تحميله كله على عاتق السياسيين. في صحيفة «هيرالد تريبيون إنترناشيونال»، أثار بوب هيربرت الاهتمام والقلق من حقيقة أنه في الانتخابات الأمريكية المعاصرة «لا يستطيع المرشحون إبلاغ الناخبين بالحقيقة ومع ذلك يحققون الفوز»، وأضاف: «نحن الأمريكيون.. نريد من زعمائنا التلاعب بالحقيقة لتصبح كما نشتهي»[32].

يصف الروائي جوستين كارترايت رحلة إلى مدينة بوفالو بولاية نيويورك فيقول:

توقفت في مطعم لتناول الفطور، كان الجميع يأكلون وجبات سخية من طعام الأطفال: فطائر محلاة مغطسة بشراب مركز، بيض مع أطباق جانبية، عصير، حليب، حليب ممزوج بمنكهات أخرى. وحين قالت النادلة عبارات مشجعة خطر على بالي فجأة أنهم يعاملوننا كأننا أطفال ضخام الأجسام. وكلما نظرت إلى التلفزيون، بدا مقدمو البرامج ـ بشعورهم المصففة البراقة ـ وكأنهم يخاطبون أطفالا، تملؤهم البهجة والحبور لتشجيع المشاهدين، ثم تظهر على قسماتهم ملامح الجدية أحيانا حين ينقلون خبرا جديدا مثل عدم ظهور أسلحة دمار شامل[33].

يقدم كارترايت الحجة على أن الأصولية الدينية «تقدم جوابا بسيطا وطفوليا لمشكلات العالم»:

المشكلة تكمن في مجتمع يفتقد الثقة في نسبة القيمة: من هنا يأتي اللجوء إلى الانشغال بشؤون الذات والسلوك الطفولي؛ والحلول السياسية الطفولية والوعود التجارية الطفولية. إنه نوع من التظاهر والادعاء لأننا لا نعرف ماهية قيمتنا.

يشكل التلهف على استعادة القيم المفقودة بالتأكيد جزءا من الخطاب البلاغي لليمين الأمريكي. وعلى وجه العموم، ربما تلقى البالغون التشجيع على التصابي من خلال الشعور بأن الطفولة ـ والبراءة ـ قد اختطفت منهم. كتاب توماس فرانك يبين كيف غذى الحنين إلى «جنة الشباب المفقودة» «ردة الفعل» المحافظة في الولايات المتحدة، حيث تفجع كتّاب مثل جي. غوردون ليدي على خسارة الحريات المرتبطة بالشباب الأمريكي: الطريقة التي اختطف عبرها مجتمع مبالغ في الالتزام بالقواعد المتع البسيطة مثل حرق أوراق الشجر، أو قطع الأشجار، أو اصطياد الطيور ببندقية

(وما فيه من براءة مفقودة!). إن فرض الإرادة ــ وحتى العنف ــ على الطبيعة برز بقوة في التاريخ والفلكلور الأمريكيين، وإحدى أهم التوليفات الفكرية تتهم الليبراليين في واشنطن باختطاف هذه الجنة المفقودة للشباب الأمريكي (وجنتها أيضا).

لكن جزءا من النضج يتمثل في إدراك أن العالم لا يمكن أن يخضع دوما لإرادتنا. ويبدو أن بوش ــ الذي توقى العديد من الحقائق الواقعية بواسطة المال أولا، ثم المسكرات لاحقا ــ يفتقد بشكل خاص هذا المنظور الناضج. كما يبدو أنه يعادي بشدة لا تلين فكرة أن هناك قوة مؤثرة خارج أمريكا يجب أن تؤخذ بالحسبان عند رسم السياسة. جون كيري قال في المناظرة مع بوش قبل انتخابات 2004:

> يستخدم أسامة بن لادن غزو العراق ليقول للناس: «أمريكا أعلنت الحرب على الإسلام». نحن بحاجة لأن نكون أكثر ذكاء في شن الحرب على الإرهاب. نحن بحاجة إلى حرمانهم من المجندين.

يقودنا هذا إلى لب القضية، ويسلط الضوء بأسلوب بلاغي على الطبيعة ذات النتائج العكسية لمقاربة بوش. لكن رد الرئيس لم يكن اعتذاريا، بل كاشفا: «منافسي قال شيئا مدهشا»، وأردف:

> قال إن أسامة بن لادن يستخدم غزو العراق كذريعة لنشر كراهية أمريكا. ابن لادن لا يقرر كيف ندافع عن أنفسنا. ابن لادن ليس هو من يقرر. الشعب الأمريكي يقرر. أنا أقرر. العمل الصحيح كان في العراق.

لاحظنا حجة هانا ارندت على أن النقطة المهمة في رسم السياسة ليست بالضرورة أن تكون على صواب، بل أن تكون متأكدا ومتيقنا. هنا، يصرح بوش بعبارة ذات صلة: ليس المهم أن تكون على صواب، بل أن تكون مستقلا ذاتيا. وهذا في واقع الأمر استحضار ضمني للحرية الطفولية: لأن الحرية عُرفت فعليا بوصفها حرية

اتخاذ القرارات بشكل مستقل عن القيود التي قد يفرضها عالم مربك ومحرج. الأمر الذي يفرض قدرا معينا من المعنى النفسي على عالم معقد وخطر أحيانا؛ وهو جنون أيضا. لنتخيل أن بوش يعبر شارعا. فهل يقف أمام سيارة مسرعة ليعلن: «السائق لا يجب أن يقرر متى أمشي. الشعب الأمريكي يقرر. أنا أقرر؟». ألا توجد حقائق واقعية خارجية معينة لا تستطيع السياسة مغالبتها بمجرد قوة الرغبة والتعلل بالأماني؟

هنالك نوع من الغطرسة الثقافية غذى نظرة إدارة بوش المركزة على الذات للعالم، مثلما غذى مقاربات الإدارات السابقة. قبيل وفاة إدوارد سعيد في أيلول/ سبتمبر 2003، كتب يقول:

> ما يبدو أن الزعماء الأمريكيين وأتباعهم من المفكرين غير قادرين على فهمه هو أن التاريخ لا يمكن مسحه كما نفعل بلوح الكتابة، بحيث نقوم "نحن" بحفر مستقبلنا عليه وفرض أساليبنا الحياتية ليتبعها أولئك الأدنى مرتبة. فمن الشائع سماع كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها يتحدثون عن تغيير خريطة الشرق الأوسط، كأنما المجتمعات والتجمعات السكانية يمكن هزها مثل حبات الفستق في جرة[34].

أضاف إدوارد سعيد قائلا: إن فكرة «وجوب قيام البشر بصنع تاريخهم قد استبدلت بأفكار تجريدية تحتفي بالاستثنائية الأمريكية أو الغربية المتفوقة، وتسخر من السياق ذي الصلة، وتزدري الثقافات الأخرى». علاوة على أنه «لولا وجود إحساس منظم يؤكد على أن الناس هناك ليسوا ــ مثلنا ــ ولا يقدرون قيمنا ــ أي جوهر العقيدة الاستشراقية التقليدية ــ لما اندلعت الحروب»[35]. في هذا البعث الجديد للاستشراق لا يوجد مكان لـ«الكرم» حسب تعبير إدوارد سعيد، وللعقول التي تفسح مجالا لـ«الآخر» الأجنبي وتحاول فهمه حسب شروطه هو.

ما تضيفه هذه العادات والمثالب والنقائص هو نوع من الانطواء السياسي على الذات: إخفاق ذريع وعميق الجذور في تقدير حقيقة وجود بشر أحياء من لحم ودم يتخذون قرارهم «هناك» خارج إطار المرجعية الذاتية لعالم الزعماء والقادة الغربيين[36]. يبدو أن قلة من الأفراد على استعداد للتفكير خارج إطار هذا الصندوق المغلق المركز على الذات. أحدهم وزير الخارجية السابق كولن باول، الذي كان ـ ربما بسبب بشرته السمراء ـ أكثر وعيا من غيره بالوجه الآخر للإمبريالية والاستعمار. يلاحظ بوب ودوارد أن باول شعر في اجتماع ضم كبار المسؤولين الأمريكيين في التاسع والعشرين من تشرين الأول /أكتوبر 2001 «بالقلق من أن الولايات المتحدة تلعب دور القوة العظمى المستأسدة، وتحاول تحريك قوى المعارضة [الأفغانية]، والتحالف الشمالي، ومختلف أمراء الحرب كأحجار الشطرنج، كأنما ليست لهم علاقة بهذه الحرب». كما سأل: «هل لديهم أية أفكار حول ما يريدون فعله، مقابل ما نعتقد نحن بأن عليهم فعله؟»[37]. لكن حتى باول يبدو عرضة للمركزانية الأمريكية وتحريفاتها وتشويهاتها للحقائق، كما حدث عندما ساعد على تعبيد الطريق للحرب على العراق عبر الإعلان أمام مجلس الأمن الدولي (وعلى الهواء مباشرة) أن «الطموح والكراهية كافيان لوحدهما لجمع العراق والقاعدة معا»[38]. بكلمات أخرى، «يكرهنا الطرفان، لذلك لا بد أن يشكلوا عصبة واحدة». ومن الأمور الحاسمة في أهميتها أنه طالما ينقسم العالم بين «الأنا» و«الآخر»، يرجح عدم فهم العلاقات داخل فئة «الآخر»[39]. وردد بوش صدى «تحليل» كولن باول في خطاب ألقاه في قاعدة «فورت براغ» العسكرية (كارولينا الشمالية) في حزيران/ يوليو 2005، حيث أشار إلى أن المتمردين العراقيين يشتركون مع «القاعدة» في تبني «إيديولوجية توتاليتارية»، وإذا لم تلحق بهم الهزيمة هناك فسوف يستخدمون البلد كركيزة لشن هجمات إرهابية على الولايات المتحدة ذاتها[40].

إذا عدنا إلى الصلة التي رسمتها ميلاني كلاين وجوان ريفيير بين العدوانية والاتكالية، نجد أن من المثير للاهتمام التفكير بالنفط ــ وبالديون. وكما تحاجج ايمانويل تود، فإن أمريكا انتقت أهدافا ضعيفة حتى مع تضاؤل قوتها الاقتصادية الحقيقية وزيادة اتكاليتها الاقتصادية (خصوصا نتيجة العجز التجاري)[41]. فالولايات المتحدة تعتمد على جذب المدخرات من شتى أرجاء العالم وعلى مغريات الاستثمارات الدولارية؛ لكن قوة الدولار تضعف، وأصبح وضعه كعملة احتياطية مغلفا بالغموض وعدم اليقين، حيث حول العراق ذاته أسعار النفط إلى اليورو في تشرين الثاني/ نوفمبر 2000 [42] ومع تحول اعتماد أمريكا على النفط إلى خوف مشروع من هذا الاعتماد ــ جزء من سياق القلق يأتي من الاعتماد المفرط على النفط السعودي والاهتمام بتأمين قواعد بديلة والسيطرة الكاملة على واردات النفط العراقية[43]. العجز المالي الهائل في ميزانية الولايات المتحدة يعني في واقع الأمر أنها أصبحت هي أيضا معتمدة على استمرار تدفق رؤوس الأموال (من شرق آسيا على وجه الخصوص) لاستدامة استهلاكها المفرط. مرة أخرى، نحن نرى مدى الاتكالية الغريبة للقوة العظمى الوحيدة في العالم. أشارت هانا أرندت إلى أن العنف يزداد مع تزايد شعور أولئك الممسكين بزمام السلطة بأنه يفلت من أيديهم (وهي نقطة ربما تتلقى دعما إضافيا من حجة فواز جرجس التي تؤكد أن تركيز الجهاديين بؤرة الاهتمام على «العدو البعيد» انبثق من الضعف والانقسامات في صفوف الجهاديين الذين ركزوا تقليديا على محاربة «العدو القريب»)[44].

في مراسم أقيمت في البنتاغون لتخليد ذكرى ضحايا الحادي عشر من سبتمبر بعد شهر واحد من الهجمات، شبه رمسفيلد الإرهابيين بالأنظمة التوتاليتارية المهزومة في القرن العشرين التي سعت لتحكم وتقمع وتضطهد، وأضاف معلقا:

> الرغبة في القوة والسلطة، والباعث الملح للهيمنة على الآخرين.. لا يجعلان الإرهابي مؤمنا بلاهوت الله، بل بلاهوت الذات وكلمات الغواية

المهموسة: «ستصبحون كالآلهة». في استهداف هذا المكان، وأولئك الذين عملوا هنا، أصاب المهاجمون الأشرار في استشعار حقيقة أن من أقاموا هنا يشكلون النقيض لهم ولكل ما يمثلونه[45].

لكن رمسفيلد بالغ في اعتراضاته بالتأكيد. إذ يبدو أن هذه الكلمات المهموسة قد أغرت المسؤولين الأمريكيين الرئيسين أنفسهم؛ وازدهرت «الرغبة في القوة» لديهم و«لاهوت الذات» في سياق الاتكالية الاقتصادية والعجز الذي تبدى في الحادي عشر من سبتمبر. صحيح أن الإرهابيين رفعوا أنفسهم بطريقة ما إلى مرتبة الله: حيث يزعمون أنهم يمثلون سلطانه ويستمدون مرجعيتهم منه، ويتصرفون كما لو أنهم يملكون قدرته، ويعتدون على الأبرياء. لكن ما يخفق السياسيون الأمريكيون في إدراكه دوما أن الآخرين يعتبرونهم أيضا يتصرفون كأنهم يملكون قدرة الله، ويزعمون تمثيل سلطته، ويعتدون على الأبرياء، ويتجاهلون القانون بدلا من الالتزام به. كما أن مشروع «تصدير الحرية» العنيف والصاخب يعطي الانطباع بأن أمريكا تسعى إلى «إعادة تشكيل العالم على صورتها»، حسب تعبير جون فيفر: وهو مشروع نسبه الكتاب المقدس بالأصل إلى رب الخليقة[46]. عبر سائق سيارة أجرة في جوهانسبورغ (بجنوب إفريقيا) عن رأي شائع حين قال لي: «يمتلك بوش قدرا من القوة جعله يظن أنه الله». أما ثقة المحافظين الجدد بقدرتهم على تغيير العالم فتدين بشيء من الفضل على ما يبدو إلى الاعتقاد بأنهم استطاعوا هزيمة الاتحاد السوفييتي (وهو إنجاز نسبه العديد من إرهابيي «القاعدة» إلى أنفسهم، وساعد في إعطائهم نوعا من الثقة المبالغ بها بالنفس)[47]. وحين أطلقت الإدارة الأمريكية في البداية اسم «عملية العدالة المطلقة» على الهجوم على أفغانستان، أشار اختيار الاسم إلى أن الولايات المتحدة وضعت نفسها في مرتبة الله، وفي الحقيقة جرى التراجع عن الاسم حين تأكد أن الله وحده في الإسلام قادر على أن يقيم «العدالة المطلقة». وتخطر على البال قصيدة بيرسي شيللي «قناع الفوضى» التي كتبها في أعقاب مذبحة بيترلو عام 1819 في مانشستر بإنكلترا:

الفوضى أتت أخيرا،

على حصان أبيض، ملطخة بالدم؛

كانت شاحبة، حتى الشفتين،

كالموت يوم القيامة.

ووضعت تاجا ملكيا؛

ولمع في قبضتها صولجان؛

وعلى جبينها رأيت هذه العبارة ـ

«أنا الله، والملك، والقانون»[48].

على مستوى من المستويات، يعتبر أولئك الذين يروجون للحرب الدائمة حلفاء طبيعيين: ويبدو أن التطرف يدخل في حالة عشق غريب مع نظيره المقابل[49]. وعلى مستوى آخر، يبدو أن من المقدر على هؤلاء الأعداء أن يتبادلوا سوء الفهم، ربما لأنهم يشبهون بعضهم بعضا ولا يستطيعون الاعتراف بهذه الحقيقة. فالإصرار على وجود نقيض لك قد ينمو ويزداد قوة كلما ازددت شبها بالنقيض؛ وفي الحقيقة، أشارت الأبحاث التي تناولت القومية إلى أهمية «نرجسية الاختلافات الصغرى»: كلما بهت الاختلاف الحقيقي بين الناس (كما في يوغسلافيا السابقة)، تعاظم شبحه في مخيلتهم[50]. ويبدو أن الجذور المشتركة لليهودية والمسيحية والإسلام لا تشكل مصدرا خاصا للتناغم والانسجام، والمزيد من التمظهرات المتطرفة للأصولية المرتبطة بهذه الديانات تحرص على إنكار واستبعاد أي عوامل مشتركة بينها. يدعونا ذلك كله لاتباع نصيحة كارين أرمسترونغ: «يجب أن نربي أنفسنا على رؤية ما يكمن في أساس مختلف الأصوليات الدينية من كرب ومعاناة وعجز وخوف، وغضب أيضا»[51].

obeikandi.com

الاعتماد على القوة الأمريكية (الركوب على أكتافها!).

عانى البريطانيون بالطبع من شعور أطول بالارتباك والتشوش وخسارة القوة مقارنة بالأمريكيين. ففي لحظات أعظم انتصار حققته بريطانيا (نهاية الحرب العالمية الثانية)، خسر البريطانيون ـ بتشجيع من أصدقائهم الأمريكيين ـ إمبراطورية بأكملها. وعلى شاكلة العضوية في مجلس الأمن الدولي وما يسمى بـ«النادي النووي»، يبدو أن الركوب على أكتاف القوة الأمريكية يوفر بعض التعويض، طاقة نجاة من عار هذا الانهيار الدراماتيكي للنفوذ والقيادة. ولأن الولايات المتحدة ما تزال إلى حد ما تأخذ شكل «صنيعة الإنكليز» ـ برغم كل شيء، فإن الأمريكيين يتحدثون الإنكليزية، ولا يتحدث البريطانيون «الأمريكية» ـ يمكن كبت حقيقة الخضوع والتبعية والحفاظ بطريقة سحرية على مكانة «القوة العظمى»[52]. (من المثير للاهتمام أن إحساسا بالإحباط العنيف نتيجة «نهاية الإمبراطورية» قد نسب أيضا إلى المتطرفين الإسلاميين الذين يستحضرون دوما أمجاد الخلافة العثمانية)[53]. أوهام العظمة المسيطرة على توني بلير واضحة بما فيه الكفاية، خصوصا حين أعلن في عام 1997:

ظل قدر بريطانيا، قرنا وراء قرن من الزمان، أن تقود الأمم الأخرى. هذه القيادة يجب ألا تكون جزءا من تاريخنا السالف، بل من مستقبلنا الآتي. فإما أن نقود الأمم أو نفنى[54].

التبعية للولايات المتحدة ليست أمرا جديدا: بل هي امتداد وتنوع لأنماط ظهرت خلال الحرب الباردة. لكنها بلغت الآن حدودا جديدة. ولربما تكون ترقية بلير إلى مرتبة البطل الأمريكي بعد الحادي عشر من سبتمبر شديدة الإغراء كما ثبت لاحقا.[55]. وزير الدفاع البريطاني جون هون قال في خطاب ألقاه أمام المعهد الملكي للخدمات المتحدة (حزيران/ يونيو 2003) إن «من المستبعد أن تنخرط المملكة المتحدة

في عمليات قتالية واسعة النطاق بدون الولايات المتحدة»، ولذلك يتوجب الآن «بناء وتجهيز وإعداد» القوات المسلحة البريطانية لتلبية مطالب الحروب التي تخوضها الولايات المتحدة[56]. بالنسبة لمنتقدي توني بلير، لا يمكن للخضوع الذليل المقيت أن يكون أكثر وضوحا، وهذا يحصر بريطانيا في دور الشريك التابع الصغير: مجرد طفيلي تافه، لكن شديد الحماس، يعتاش على ثروة وقوة الولايات المتحدة. لقد تعرضت بريطانيا للسخرية باعتبارها مستعمرة لمستعمرتها السابقة، وأطلق المنتقدون على بلير ألقابا هجائية وتحقيرية مثل «كلب بوش» أو «طفل بوش»، أو «صغيري توني»[57].

لا ريب في أن قراءة «ثلاثون يوما» (عنوان كتاب بيتر ستوثارد حول بلير)، بعد قراءة كتاب ودوارد «بوش في الحرب»، تعتبر تجربة كئيبة ومثبطة. صحيح أن العديد من الأحاديث المسجلة في كتاب «بوش في الحرب» تثير الرعب والذعر فعلا؛ لكنك تشعر ببعض الإثارة على أقل تقدير، بإحساس بوجود شيء من القوة، وإن استخدمت بشكل سيئ جدا. أما كتاب ستوثارد (وعنوانه الفرعي: «شهر في قلب حرب بلير»)، فيصف عالما مصغرا تهيمن عليه قضايا التقديم والعرض حيث يحاول بلير وكامبل إقناع عامة الناس وحزب العمال (وربما إقناع الذات) بعدالة حرب بوش في واقع الأمر لا حرب بلير[58].

في حين أن بعض البريطانيين يجدون هذه «العلاقة الخاصة» الأحادية الجانب ترفع الشأن أو تسلي النفس، إلا أن غيرهم يرونها خطرة ومذلة. بلير يشعر إلى حد ما بالإذلال عموما: في تشرين الأول/ أكتوبر 2003 قال: إنه ما كان بمقدوره أن يترك صدام حسين في مكانه «وقد امتلأ جرأة» بينما «تتعرض ديمقراطيات العالم للمذلة»[59]؛ لكنه عمي بكل عناد عن الإذلال الذي تعرض له من قبل بوش. فقد أضعف أسلوب بوش الأحادي الجانب مرارا وتكرارا (حول قضايا مثل التعرفة على

obeikandi.com

الفولاذ، والأسرى البريطانيين في غوانتانامو، إضافة إلى حرب العراق ذاتها) محاولات بلير إظهار أن العلاقة الخاصة تغل أرباحا ومكاسب. وحين سُمح لاريل شارون بعرقلة "خارطة الطريق" والتشبث بخطته للحفاظ على عدد من المستوطنات اليهودية المختارة في الضفة الغربية، كان ذلك بمثابة ضربة لقيام أي دولة فلسطينية متماسكة ولطمة لبلير في الوقت ذاته.

في هذه الأثناء، عبرت الصحف البريطانية اليمينية والسياسيون المنتمون إلى اليمين عن القلق على السيادة حين وضع بضع مئات من الجنود المرابطين في مقدونيا تحت قيادة الاتحاد الأوروبي مثلا، ولم يمثل تآكل السيادة في العلاقة مع الولايات المتحدة هاجسا مقلقا بالنسبة لهذه الصحف وأولئك السياسيين. طرح جورج مونبيوت سؤالا وثيق الصلة حين قال: «لماذا استبدل الشعار الرجعي القديم ـ موطني، انصره ظالما أو مظلوما ـ بشعار آخر: ـ وطنهم، انصره ظالما أو مظلوما؟». وأشار: «الوطنيون المزيفون عندنا يعرفون أين تكمن القوة. وبعد أن حددوا موقعها، يريدون استرضاءها. لن يقفوا في وجهها أبدا، للسبب ذاته الذي يجعل من الولايات المتحدة تهديدا أكبر لسيادتنا من الاتحاد الأوروبي»(60). وهذا تنويع، بكلمات أخرى، على مبدأ «القوة حق».